Modern University
for technology & information
الجامعة الحديثة للتكنولوجيا والمعلومات

كلية الإعلام

المجلة العربية لبحوث الا تصال والإعلام الرقمي
مجلة نصف سنوية محكمة

العدد السابع
يناير ٢٠٢٥
(الجزء الاول)

الاتصال الابداعى وذوو الاحتياجات الخاصة قضايا مثارة

أ.د/ السيد بهنسي
أستاذ الاتصالات التسويقية ـ كلية الإعلام- جامعة عين شمس

P-ISSN-2812-5738 E-ISSN-2812-5746

ملخص:

في العقود الأخيرة تصاعد الاهتمام العالمى بذوى الاحتياجات الخاصة وقضاياهم المختلفة فى المجالات المتعددة، ورغم تزايد الدراسات الإعلامية في هذا الصدد إلا أن قضايا الاتصال الابداعى والتي يمكن أن تغير حياة الكثيرين بشكل إيجابى لم تحظ بما تستحق من اهتمام، رغم أهميتها في معالجة كيفية توظيف وسائل الاتصال المختلفة مثل السينما والراديو والتليفزيون والمسرح في نشر الأعمال الإبداعية ذات الصلة بذوى الاحتياجات الخاصة، سواء تلك التى يقومون بإنتاجها بأنفسهم، أو تلك التي ينتجها آخرون وتناقش من خلالها بعض القضايا التي تتعلق بالجوانب المختلفة من حياتهم، أو يتواجدوا بها كأحد العناصر المشاركة فى العمل، وتحاول هذه الورقة البحثية تقديم رؤية مختلفة تستند إلى مناقشة بعض الأعمال الإبداعية التى قدمها ذوو الاحتياجات الخاصة لمجتمعاتهم وأسهمت في إثرائها وتقدمها، وتحليل الرؤى الإبداعية المختلفة التى قدمت عالم ذوى الاحتياجات الخاصة، والتعرف على أوجه التميز والقصور، وما ينبغى مراعاته عند إعادة تناول ما يتصل بهم فى المستقبل، وتوسيع آفاق الرؤية لعالم ذوى الاحتياجات الخاصة بإعتبارهم قطاعاً فاعلاً ومبدعاً يحتاج إلى تعديل المجتمع لتصوراته الذهنية بشأنه، والتى أخفقت جهود عديدة فى تناولها وتحليلها والتعبير عنها.

الكلمات المفتاحية: الاتصال الابداعى – ذوو الاحتياجات الخاصة – الأعمال الابداعية

Abstract:

In recent decades, the global interest in special needs and their various issues in multiple fields has escalated, and despite the increase in media studies in this regard, issues of creative communication that can positively change the lives of many have not received the attention they deserve, despite their importance in addressing how to employ various means of communication such as cinema, radio, television and theater in disseminating creative works related to people with special needs, whether those that they produce by themselves, or those produced by others to discuss some issues that relate to different aspects of their lives or in which they are presented.

This research paper attempts to present a different vision based on discussing some of the creative works that people with special needs have presented to their societies and contributed to their enrichment and progress, analyzing the different creative visions that presented the world of people with special needs, identifying the aspects of excellence and shortcomings, and what should be taken into account when re-addressing issues related to them in the future, and expanding the horizons of the vision of the world of special needs as an active and creative sector that needs society to adjust its mental images about them, especially that many efforts failed to address, analyze and express them, as an active and creative sector that needs a change in the society's mental perceptions of them.

Keywords: Creative Communication – People with Special Needs – Creative Works

فى عام 2023 أشارت منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة إلى أن عدد سكان العالم قد وصل إلى ثمانية مليار نسمة، وأن هناك أكثر من مليار شخص من هذا الرقم من ذوى الاحتياجات الخاصة، وأن 80% من هؤلاء الأشخاص يوجدون فى البلدان النامية، وغالباً ما تلزمهم الرعاية الصحية (1)، وكانت تقارير منظمة الصحة العالمية قد أشارت إلى أن إلى ارتفاع معدل الأعمار للشعوب - حيث يتعرض المسنون إلى مخاطر أعلى تؤدى للإعاقة - علاوة على الارتفاع العالمى فى معدلات الحالات الصحية المزمنة المترافقة مع شكل من أشكال الإعاقة مثل السكر والأمراض القلبية والاعتلالات النفسية، وجدير بالذكر أن أنماط الإعاقة ببلد ما تتأثر بتوجهات الحالات الصحية، والتوجهات المرتبطة بالعوامل البيئية وعوامل أخرى متنوعة مثل حوادث الطرق، والكوارث الطبيعية، والصراعات، والنظم الغذائية، وتعاطى المخدرات.

إن تصاعد الأرقام عالمياً لذوى الاحتياجات الخاصة، والنسبة الملموسة التى يمثلونها داخل مختلف الدول يحتاجان إلى تكاتف الجهود فى مختلف المجالات من أجل مواجهة المشكلات التى تواجههم، والتى لا تقتصر نتائجها عليهم فقط وإنما تمتد إلى المجتمع ذاته، والتى تتمثل فى قصور السياسات، وسلبية المعايير والمواقف والاتجاهات تجاههم، والمشكلات المرتبطة بتقديم الخدمات الخاصة بهم، وقصور التمويل، ونقص أو غياب البيانات والمعلومات.
وفى هذا الصدد، تتعدد المؤسسات التى يمكن أن تسهم فى مواجهة مشكلاتهم، وتتنوع الجهود التي تستطيع التخفيف من صعوبات مواجهة هذه المشكلات، ويعد الاتصال الإبداعى أحد المجالات الأساسية التى ينبغى مراعاة أهمية الدور الذى يمكن أن يؤديه بهذا الشأن فى زيادة الوعى بذوى الاحتياجات الخاصة، ومعالجة قصور إدراك الكثير من قطاعات المجتمع لقضاياهم وقدراتهم وطبيعة وخصوصية عالمهم، كما يمكن أن يكون مجالاً لإطلاق ملكات وقدرات ذوى الاحتياجات الخاصة، وأن يعكس حياتهم وانجازاتهم ومشكلاتهم، ويسهم فى تفعيل إدماجهم فى مجتمعاتهم، خاصة أن هذا القطاع لم يأخذ حتى الآن الجهد المنظم الذى يستحقه، وأن كثيراً من الجهود التى بذلت بشأنه كانت محاولات متقطعة أو متناثرة أو مرتبطة بمناسبات أو مسايرة لتصاعد الاهتمام العالمى به.

وتثير العلاقة الوظيفية المتداخلة بين مجالات الاتصال الإبداعى وذوى الاحتياجات الخاصة العديد من القضايا التى تحتاج الى الانتباه اليها ومناقشتها، ووضع نتائج المحاولات الايجابية منها موضع التنفيذ والاستفادة، خاصة بشأن ما يمكن أن تقدمه مجالات الاتصال الإبداعى لهم، وما يمكن أن تعكسه للمجتمع بشأن انجازاتهم وقضاياهم، فى ظل الرغبة الملحة فى البحث عن حلول لمشكلاتهم ونوافذ للتطلع اليهم بواقعية ووعى، سعياً لمجتمع يهتم بلا تزيد ويدرك بلا مبالغة، وفى ما يلى سنتعرض للقضايا المثارة التالية:

١- عالم الاتصال الإبداعى وذوو الاحتياجات الخاصة.. لماذا ؟:
يشكل الاتصال الإبداعى عالماً واسعاً للتعبير عن الأفكار والقضايا والمشكلات والأشخاص، مستخدماً فى ذلك وسائل الجذب التى تتمتع بها وسائل الاتصال الإبداعى مثل وسائل الإعلام والمسرح والسينما والتصوير والموسيقى وغيرها

من فنون ومجالات التعبير، ولذلك فإن عالم الاتصال الإبداعى بما يملكه من إمكانات وما يضيفه إليه التقدم التكنولوجى كل يوم يمكن أن يصبح نافذة يطل من خلالها المجتمع بوعى على عالم ذوى الاحتياجات الخاصة سعياً للتبصر بهم وبقدراتهم وقضاياهم، وكيفية إيجاد الحلول لها، وتصحيح العديد من الأخطاء المدركة بشأنهم، والتى ساهمت فى ترسيخ صورة ذهنية جامدة وغير صحيحة تعوق محاولات تنفيذ السياسات.

كما يمكن أن يمثل الاتصال الإبداعى عالماً سحرياً لتعبير ذوى الاحتياجات الخاصة عن أنفسهم، وعما يملكونه من قدرات، وما يمكن أن يسهموا به فى تطوير مجتمعاتهم، كما يستطيع المساهمة فى إحلال معلومات وصور واقعية إيجابية بشأنهم بدلاً من المعلومات والصور الذهنية الناقصة أو المحرفة أو غير المكتملة، فعلى الرغم من التقدم والوعى العلمى الذى يشهده العالم فى شتى المجالات، إلا أن الأفكار السائدة عن ذوى الاحتياجات الخاصة مازالت تعانى من قصور وتشوه تشهد به الدراسات فى جميع أنحاء العالم، وأن المحاولات التى تبذل من أجل تضييق الفجوة بين الواقع الحقيقى والواقع المدرك مازالت محدودة، وتعانى من المبالغة فى الإنجاز أو المبالغة فى الحذر.

كما يجب الإشارة إلى أن هناك تقصيراً من جانب الكثير من المتخصصين فى مجال الاتصال الإبداعى وعالم ذوى الاحتياجات الخاصة بشأن نشر المعلومات الجديدة وجهود المجتمعات الأخرى، ونشر نتائج المحاولات العلمية، والسعى نحو تطبيقها وإعلام المهتمين بوسائل التطبيق، وعدم الاكتفاء بالنظر إلى ما سبق باعتبارها قضايا علمية لا تهم غير المتخصصين، متجاهلين أن هذه القضية قضية مجتمعية قبل أن تكون اهتماماً علمياً، فكل جديد بهذا المجال يهم ذوى الاحتياجات الخاصة، وذويهم، والمتصلين بهم، والمجتمع الذى يوجد لدى العديد من أفراده قصور حول إدراك حقيقة واقع ذوى الاحتياجات الخاصة، وهو قصور لا يعود إلى هؤلاء الأفراد بقدر ما يعود إلى ضيق الرؤية العامة فيما يتعلق بمعالجة هذه القضية.

إن عالم الاتصال الإبداعى بتعدد مجالاته وجاذبية وسائله وسهولة وصولها إلى كل أفراد المجتمع يمكن أن يمثل ساحة لحل الكثير من تفاصيل هذه الإشكالية، حيث يمكن أن يصل إلى كل بيت، وإلى كل فرد يعانى، أو يهتم، أو يتصل، أو يريد أن يعرف، أو أن يصحح ما لديه من معلومات عن هذا القطاع الذى لم يعد ممكناً الاستمرار فى التقصير بشأنه.

٢- استخدام مجالات الاتصال الإبداعى كوسيلة لمواجهة ذوى الاحتياجات الخاصة لصعوبات الواقع:

كتب بيتهوفن فى مذكراته يقول: "يا لشدة ألمى عندما يسمع أحد بجانبى صوت نای لا أستطيع سماعه، أو يسمع آخر غناء أحد الرعاة بينما أنا لا أسمع شيئاً، كل هذا يكاد أن يدفعنى إلى اليأس، وإلى أن أضع حداً لحياتى البائسة، لكن الفن وحده هو الذى يمنعنى من ذلك" (2)... لقد عبرت هذه الكلمات عما يمكن أن تمثله مجالات الاتصال الإبداعى لذوى الاحتياجات الخاصة من آفاق للتعبير عن الانفعالات والصراعات الداخلية، وإطلاق الطاقات الخاصة

بالتفاعل والتأثير والتأثر بالآخرين، وتقديم بدائل للتواصل تعويضاً عن فقد بعض وسائل التفاهم، والمساهمة في تقليل الضغوط التي يتعرضون لها، واستثمار القدرات الموجودة لديهم، ومساعدتهم على تجاوز جوانب الضعف، والنظر إليها باعتبارها وضعاً بشرياً عادياً وليست عجزاً يمثل حاجزاً بينهم وبين الآخرين، وإتاحة المجال لهم ليكونوا عناصر مؤثرة في مجتمعاتهم من خلال رؤيتهم الخاصة التي تحملها إبداعاتهم، حيث تتضاعف أهمية التعبير الفني في الحالات التي لا تحسن التعبير عن نفسها لفظياً، وهو ما عبرت عنه إحدى فنانات فرقة ذوى الإعاقة الصينية لفنون الأداء، والتي تتكون من مائة وخمسين فناناً وإدارياً جميعهم من ذوى الاحتياجات الخاصة فتقول: "الحياة خبرة وتجربة ، نحن نواجه كل تحديات الحياة بقلب ملئ بالسعادة والامتنان، فكل مقطوعة موسيقية تسمعونها هي أنشودة تتدفق في عروقنا، نرجو منكم الانضمام إلينا والاستماع إلى أحلامنا، ففاقدو البصر يصنعون العالم ويتخيلونه بالموسيقى العذبة والرقصات المرحة والحركات الحرة، والمعاقون جسدياً يشرحون الحياة الملونة بالتشكيل الجميل ... إن الحياة كمال ونقصان، فبعضنا لا يرى شيئاً، وبعضنا لا يسمع شيئاً، والحياة حلم، نشعر بالنور في بحر الظلام، ونحس بالإيقاع الموسيقى من الصمت، ونبحث عن الكمال من النقصان".

وإذا كان من الشائع – للأسف- أن ينظر الكثيرون للإعاقات بإعتبارها قيوداً تحد من قدرة أصحابها على الانتظام بشكل طبيعي في المجتمع، وتمنع قيامهم بأدوارهم المتوقعة، فإن تأمل مجالات الاتصال الإبداعي تثبت عكس ذلك، وتؤكد أنه يمكن استخدامها بكفاءة في إعادة اكتشافهم لأنفسهم، من خلال دعمها لإمكاناتهم النفسية ومهاراتهم الاجتماعية، ومساهمتها في إعادة التوازن وامكانية التكيف مع الظروف التي طرأت، واستعادة ثقة الفرد في ذاته وفي قدرته على التعبير وتجاوز كل الحدود المقيدة، وقد شهدت المجتمعات نماذج عديدة اتخذت من مجالات الاتصال الإبداعي وسيلة لإعادة ترتيب أوراق حياتها، فالفنانة التشكيلية المكسيكية فريدا كاهلو Frida Kahlo كانت قد أصيبت بشلل الأطفال وهي في السادسة من عمرها ، واضطرت إلى التمدد على ظهرها من دون حراك لمدة سنة كاملة، وعملت والدتها على راحتها طوال تلك السنة، فوضعت لها سريراً متنقلاً ومرآة ضخمة في سقف الغرف ، ولأنها كانت وحيدة وجهاً لوجه مع ذاتها طوال النهار طلبت ريشة وألواناً وأوراقاً لترسم، وراحت تنقل صورتها يومياً واكتشفت بذلك حبها بل شغفها بالرسم، لم تدرس فريدا الرسم أكاديمياً إلا أنها تلقت بعض الدروس على يد أحد الأساتذة، وكان الرسم المتنفس الوحيد لآلامها وعذاباتها وجعل تجربتها الخاصة منبعاً للخيال، ولم يكن ذلك إلغاء للواقع للوصول إلى مملكة الخيال، إذ أن لوحاتها كانت واقعية قابلة للفهم وغير مستعصية الإدراك، وفيها الكثير من التوثيقية والتقريرية والوضوح حتى للمشاهد البسيط، وكتبت فريدا عن ذلك في سيرتها الذاتية تقول: "لم أرسم أبداً أحلاماً، بل قدمت واقعي الحقيقي فقط" (3).

كما مثل الاتصال الإبداعي متنفساً خاصاً للرسام الفرنسي الكبير أوجست رينوار Auguste Renoir والذي يعد من كبار رسامي المدرسة الانطباعية حين أصيب بالتهاب المفاصل الذي أدى إلى شلل ذراعيه قبل وفاته بعشرين عاماً، واستخدم مقعداً متحركاً، ورغم ذلك لم يتوقف عن الرسم حتى أنه كان يربط فرشاة الرسم بخيوط على يده اليمنى حتى يتمكن من إنجاز لوحاته، واستمر على هذا النحو حتى آخر أيام حياته (4).

إن الاتصال الإبداعى بما يملكه من آفاق غير محدودة يستطيع أن يؤدى دوراً جديراً بالاهتمام فى إعادة تكيف ذوى الاحتياجات الخاصة مع أنفسهم ومع مجتمعاته، ويستطيع أن يشكل إطلالة إلى مدى أرحب من الواقع، ويشكل مرادفاً للتعبير الفعال الذى يمكن أن يشكل مردوده قيمة معنوية دافعة للاندماج وتقوية الدفاعات النفسية، بعيداً عن العزلة والقلق والانسحاب واضطراب العلاقات الاجتماعية.

٣- استخدام جاذبية الاتصال الإبداعى فى زيادة الوعى بعالم ذوى الاحتياجات الخاصة:

عن قصة حقيقية رائعة قدم فيلم خطاب الملك The King's Speech من إخراج توم هوبر Tom Hopper وبطولة كولين فيرث Colin Firth أحداثاً دارت حول الملك جورج السادس عندما وصل إلى كرسى الحكم فى بريطانيا بعد تنازل أخيه الأكبر له عن الحكم بسبب وقوعه فى حب امرأة أمريكية مطلقة لم تسمح له قوانين الملكية البريطانية بالزواج منها، مما وضع الملك فى مأزق بالغ حيث لم يكن مستعداً لذلك وكان يعانى "تعثر الكلام" وخصوصاً عند الحديث بشكل علنى وهو ما كان يضعه فى حرج بالغ، ومما زاد الأمر صعوبة أنه تولى مقاليد الحكم فى فترة كان مطلوباً منه أن يخاطب شعبه من خلال الراديو فى وقت حرج للغاية حيث كانت الحرب العالمية الثانية على وشك اندلاعها، وكان هتلر مسيطراً على شعبه من خلال الراديو فى ذلك الوقت، وهو ما جعل الملك جورج السادس وزوجته يسعيان للبحث عن علاج لمشكلة التلعثم، ووجدا الحل فى الدكتور ليونيل لوج الذى استطاع بأساليب غير تقليدية أن يخلص الملك من عقدته، وأن يجعله يخاطب شعبه بخطاب من ثلاث صفحات عبر الراديو بعد إعلان هتلر الحرب عام 1939 وأداه بشكل رائع منساب خال من أى مشكلات (5).

لقد جسد هذا الفيلم إحدى المشكلات الأساسية التى تواجه ذوى الاحتياجات الخاصة فى مختلف أنحاء العالم وعلى اختلاف القطاعات وهى وجود درجات من نقص الوعى بأن الإعاقة هى جزء من الحالة الإنسانى، وأن كثيراً من الناس على امتداد حياتهم يصابون بحالات من الإعاقة المؤقتة أو المستمرة لأسباب متعددة قد يكون بعضها نتيجة للإصابة بأمراض أخرى عضوية أو نفسية، والأهم أن الإعاقة ليست مرادفاً للعجز كما هو شائع، فضعف أداء أحد أعضاء الإنسان لا يعنى عجز باقى الأعضاء عن أداء وظائفها بكفاءة طبيعية وأحياناً بكفاءة تعوض نقص العضو المصاب، وتنبع هذه المشكلات من تراكم المعلومات الخاطئة والقاصرة عن عالم ذوى الاحتياجات، وعدم بذل الجهد الكافى فى تصحيح الأخطاء والاقتراب بوعى ورغبة من هذا العالم الذى يشكل إحدى دوائر المجتمع الأساسية.

وهنا تأتى مسئولية الاتصال الإبداعى بما يملكه من جاذبية خاصة فى تصحيح المعلومات الخاطئة واستكمال الناقص منها وجذب الانتباه إلى البعيد من الحقائق، سعياً إلى اقتراب أفراد المجتمع من عالم ذوى الاحتياجات باهتمام وتقدير متوازنين لا يفرطان فى التعاطف أو الإعجاب كما هو موجود الآن، ويستطيع الاتصال الإبداعى بتقديمه للحقائق أن يمهد طريقاً يرى المجتمع من خلاله بوضوح جزءاً لا يتجزأ منه، كان غافلاً عنه ومقصراً فى تقديمه

لعقـود طويلـة.

فعـلى سـبيل المثـال فـإن سـتيفن هوكينـج Stephen Hawking أحـد أبـرز علـماء الفيزيـاء فى العـالم، والحاصـل عـلى الدكتـوراه فى علـم الكـون، والـذى تلقـى نظرياتـه خاصـة حـول الثقـوب السـوداء احتراماً واسـعاً، وحقـق كتابـه "موجـز تاريـخ الزمـن" شـهرة عالميـة وأصبـح واحـداً مـن أكـثر الكتـب العلميـة مبيعـاً فى العـالم، كان قـد أصيـب وهـو فى الواحـد والعشريـن مـن عمـره بمـرض التصلـب الجانبـى مـما جعلـه مقعـداً تمامـاً ، وعـلى الرغـم مـن أن تطـور المـرض قـد جعلـه عاجـزاً عـن الحركـة والنطـق، إلا أنـه تحـدى مرضـه وتحـول إلى نمـوذج عالمـى يحتـذى بـه... كذلـك فـإن الرسـام الفرنـسى الكبـير كلـود مونيـه Claude Monet والـذى ضعـف بـصره فى العقـد الأخـير مـن حياتـه بسـبب مـا شـخص وقتهـا بمـرض اعتـام عدسـة العـين، وبنـاءً عـلى ذلـك أعلـن مونيـه عـن فقدانـه التدريجـى للقـدرة عـلى ملاحظـة توهـج وبريـق الألـوان، وكتـب مشـيراً إلى: " أن الألـوان لم تعـد لهـا الكثافـة نفسـها، وأن اللـون الأحمـر يبـدو لى موحـلاً، وأصبحـت لوحـاتى تسـود شـيئاً فشـيئاً"، وكانـت مأسـاة مؤلمـة لهـذا العاشـق للضـوء واللـون فى أعمالـه حـين بـدأ يفقـد التمييـز بـين الألـوان، وفقـد رؤيـة اللـون الأزرق، وعـلى الرغـم مـن ذلـك لم يتوقـف عـن الرسـم، وطغـى عـلى أعمالـه الفنيـة اللـون الأحمـر والأصفـر والأرجـوانى بـدلاً مـن ألوانـه الإعتياديـة كالأبيـض والأخـضر والأزرق، وبـدت ضربـات فرشـاته أكـثر حـدة والألـوان أكـثر كثافـة، وفى محاولـة مقاومـة منـه للتعـرف عـلى الألـوان أثنـاء الرسـم، اعتمـد مونيـه ترتيبـاً دقيقـاً للألـوان وعمـد لكتابـة أوصـاف عـلى أنابيـب الألـوان لتيسـير التعـرف عليهـا، وابـدع عـدداً مـن لوحاتـه رغـم أنـه لم يكـن راضيـاً عنهـا مقارنـة بإبداعاتـه السـابقة(6).

كـما يديـن فاقـدو البـصر فى العـالم للويـس بريـل Louis Braille بالفضـل فى مسـاعدتهم للتواصـل مـع العـالم، فعـلى الرغـم مـن أن بريـل كان كفيفـاً إلا أن اسـتطاع أن يحـول إعاقتـه إلى اخـتراع سـاعد كل مكفـوفى العـالم، عندمـا اخـترع طريقـة تسـاعدهم عـلى القـراءة عرفـت باسـمه ... كـما يذكـر أن تومـاس أديسـون Thomas Edison كان لديـه صعوبـات فى التعلـم، ومـع ذلـك اخـترع المصبـاح الكهربـائى والـذى كان اختراعـاً مذهـلاً جعـل المؤرخـين يـرون أن التقـدم العلمـى قـد مـر بثـلاث مراحـل، المرحلـة الأولى هـى ظهـور الآلات البخاريـة، والمرحلـة الثانيـة هـى اخـتراع الكهربـاء وظهـور مخترعـات اديسـون، والمرحلـة الثالثـة هـى ظهـور النظريـة الالكترونيـة الماديـة، وعندمـا رحـل في 18 أكتوبـر 1931 أطفـأت أمريـكا كل المصابيـح الكهربائيـة لتعيـش لليلـة واحـدة أخـيرة فى ظـلام مطبـق اعترافـاً بفضـل توماس اديسـون الـذى أطلـق عليـه رجـل الألفيـة The Man of the Millennium... كـما أن الأمريكيـة الشـهيرة هيلـين كيلـر والتـى فقـدت البـصر والسـمع ولم يتجـاوز عمرهـا العامـين كانـت أول كفيـف وأصـم يحصـل عـلى شـهادة جامعيـة وتحولـت فى وجـدان العـالم إلى رمـز.... وفى مجـال الموسـيقى يعـد الإيطـالي أندريـا بوتشـيللى Andrea Bocelli واحـداً مـن أشـهر مطـربى الأوبـرا فى العـالم وعـلى الرغـم مـن إعاقتـه البصريـة إلا أنـه شـق طريقـاً عالميـاً للموسـيقى، وباعـت أعمالـه أكـثر مـن خمـس وسـتين مليـون تسـجيلاً حـول العـالم.

كما تذكر الكتابات العلمية أن عدداً من المصابين بأعراض مرض التوحد أو الذين كان هناك شك فى إصابتهم به لتواجد صفة أو أكثر من صفات المرض مثل العزلة أو قصور التواصل اللفظى أو غير اللفظى مع الآخرين، إلا أن تلك الشخصيات استطاعت أن تقدم لمجتمعاتها الكثير، بل كان لدى بعضهم انجازات استثنائية مثل اينشتاين والذى يعد من أعظم علماء القرن العشرين، حيث كانت قدراته محدودة للغاية فى طفولته وكان يبدو تلميذاً دون المتوسط ، ورغم ذلك وضع نظرية النسبية والتى أشعلت الثورة فى عالم العلوم وسدد منها ضربات عنيفة لقوانين الحركة التى وضعها نيوتن حيث كان العلماء يفترضون أن الزمن والمكان عنصران مطلقان وإذا باينشتاين بعملية حسابية رائدة يتيح للإنسان إمكانية السيطرة على هذين العنصرين بوضعهما فى عالم النسبية، وتتويجا لجهده مُنح جائزة نوبل فى الفيزياء، كما تذكر الكتابات أن الموسيقى النمساوى الشهير موزارت والذى عاش خمساً وثلاثين عاماً عانى فيها من أعراض مرض التوحد، ورغم ذلك ألف ستمائة عملاً غنائياً لم تصل إليها أعمال أعظم الموسيقيين مثل "زواج فيجارو" و"دون جيوفانى" و"الناى المسحور" والتى تعد كنز المسرح الغنائى، وكتب الكونشرتو لكثير من الآلات ويعتبر ما ألفه منها للبيانو فاتحة عصر الكونشرتو الحديث، كما ذكر المؤرخون أن اسحاق نيوتن عانى أعراض مرض التوحد حيث لم يحالفه الحظ حين التحق بالمدرسة ووصفته التقارير التى كتبت عنه بأنه "خامل" و"غير ملتفت" و" يهمل الدراسات المقررة " ويقبل على الموضوعات التى تستهويه حتى أنه تم إخراجه من المدرسة، وعندما عاد إليها بعد عامين أهمل واجباته مرة أخرى لنفس السبب، وحصل على درجته العلمية الجامعية فى جامعة كمبردج بعد جهد كبير، وبعدها بقليل انتخب زميلاً بالكلية، وحين استقال أستاذه فى الرياضة اسحاق بارو، عين نيوتن خلفاً له بناء على توصية منه وصف فيها نيوتن بأنه "عبقرى لا نظير له"، وقد احتفظ نيوتن بكرسيه فى ترنتى أربعة وثلاثين عاماً، ولم يكن بالمعلم الناجح، وكتب سكرتيره عن ذكريات ذلك العهد يقول: "كان الذين يذهبون للاستماع إليه قليلين، والذين يفهمونه أقل، حتى أنه فى أحيان كثيرة كان يبدو وكأنه يقرأ للجدران بسبب قلة المستمعين، وفى بعض المناسبات لم يكن يجد مستمعين إطلاقاً "، ومع ذلك استطاع أن يصل إلى نظرية الجاذبية التى تعد من أعظم اكتشافات الإنسانية.

إن تقدير الإسهامات التى قدمتها هذه النماذج للبشرية من خلال تقديم واع ومنظم ومدرك لأهدافه يسهم فى دمج الأشخاص ذوى الإعاقة بمجتمعاتهم، ولذا كان من الأهمية تحسين الفهم العام للإعاقة، ومواجهة المفاهيم الخاطئة حولها، وتمثيل ذوى الإعاقة بصورة عادلة، كما أن جمع معلومات حول المعارف والمعتقدات والمواقف المتعلقة بالإعاقة يمكن أن يساعد فى تحديد الثغرات فى الفهم العام، ومن ثم رأب هذه الثغرات من خلال التثقيف والمعلومات العامة، وينبغى على الحكومات والمنظمات التطوعية والاتحادات المهنية تنظيم حملات للتسويق الاجتماعى، من أجل إحداث تغيير فى المواقف المتعلقة ببعض القضايا(7)، كما يجب أن يكون لاستخدام وسائل الاتصال الإبداعى دور رئيسى فى إنجاح هذه الحملات، ونشر القصص الإيجابية حول الأشخاص ذوى الإعاقة.

وإذا كان هناك اعتراف عالمى متصاعد بأهمية تقديم الإعاقة على أنها جزء من التنوع الطبيعى والمقبول فى المجتمع

، فلابد للاتصال الإبداعى من أن يعرض هذا الجزء عرضاً طبيعياً دون مبالغة فى الانحياز إلى التعاطف أو الاندهاش، ويجب أيضاً عدم فصل ذوى الاحتياجات الخاصة عن غيرهم من قطاعات المجتمع، فتصحيح الصورة لا يكون إلا بتقديمهم فى وضع عام وموضوعات عامة مع غير ذوى الاحتياجات الخاصة سعياً لشغلهم لمكانتهم الطبيعية من خلال قدراتهم وإسهاماتهم واختلافاتهم وآرائهم الإيجابية والسلبية، وفى غياب تناول موضوعات الإعاقة، وهو ما يجعل تواجدهم فى وسائل الإعلام نمطاً مألوفاً وجزءاً من الحياة اليومية بما فيها من تنوع وتعدد.

٤- إتاحة مجالات الاتصال الإبداعى لذوى الاحتياجات الخاصة للتعبير عن قضاياهم بأنفسهم:

فى لقاء عقد بالمملكة المتحدة بين عدد من ذوى الاحتياجات الخاصة وبعض الإعلاميين وجهت ميشلين ماسون Micheline Mason وهى واحدة من ذوى الاحتياجات انتقادها للإعلاميين قائلة: "أنتم أخرجتمونا من عالمكم ونحن نخرجكم من عالمنا، نحن لا نرى صوراً لحقيقتنا فى أى مكان، ونحن على وعى أنه لا يتم اعتبارنا جزءاً من الجمهور، اتركوا فكرة أن العالم لا يهتم بنا، فتجربتنا تثبت العكس تماماً "(8)، لقد أصابت المتحدثة فيما قالته، ذلك أن إحدى المشكلات التى يعانى منها ذوو الاحتياجات الخاصة أن الكثير من المعلومات التى تقدم عنهم تأتى من أشخاص لا يعانون مشكلاتهم، أو من مؤسسات لا يمثلون بها، وبالتالى تفتقر الكثير من الحقائق المقدمة لتفاصيل حاسمة لا يشعر بها إلا من يعانيها ويعايشها، ولذلك تخرج الصورة غير مكتملة، وناقصة بلا تبرير، فذوى الاحتياجات قادرون على التعبير عن ذواتهم واحتياجاتهم.

وقد أشارت دراسة لهيئة الإذاعة البريطانية إلى أن ذوى الاحتياجات الخاصة يرون أنهم إذا كانوا من دافعى الضرائب شأن الآخرين فإنهم لا يفهمون لماذا لا يشاهدون أى انعكاس لهم أو حضور على الشاشة؟ خاصة فى القضايا التى تمسهم مباشرة، وأن الأخبار التى تتعامل مع قضاياهم مثل صعوبات القراءة أو التلعثم مثلاً لا تتضمن أشخاص لديهم نفس الإعاقة ليتحدثوا عن أنفسهم(9).

وقد يرجع ذلك إلى نقص الوعى بأن ذوى الاحتياجات الخاصة أكثر الناس قدرة على التعبير عن قضاياهم بعمق وواقعية لا تتوافر لغيرهم، فمما لا شك فيه أن لذوى الاحتياجات رؤية خاصة وفريدة حول عالمهم، وقدراتهم، ومدى ونوعية الدعم الذى يحتاجون إليه، ولذلك فليس من المنطقى أن نتخذ قراراً لهذا القطاع الكبير فى المجتمع فى غياب من يمثلونه والاستماع المدقق إليهم قبل اتخاذ أى قرار.

وعلى الرغم من الصعوبات التى تواجه ذوى الاحتياجات الخاصة فى مجال التعبير عن عالمهم بأنفسهم رغم ما يمثله ذلك من أهمية، إلا أن العقود الأخيرة قد شهدت تطوراً إيجابياً وتجارب عديدة بهذا الصدد، ففى مجال السينما تأسس فى الولايات المتحدة مكتب الدعم الإعلامى Media Access Office ويضم مجموعة من خبراء صناعة الإعلام والسينما الذين يدعمون استعانة أفلام هوليوود بممثلين من ذوى الاحتياجات الخاصة لأداء أدوار

ذوى الاحتياجات على شاشة السينما، على أن تظهر إعاقتهم وكأنها جزء من الحياة الطبيعية الواقعية التى تضم اختلافات وتنوعات عديدة من البشر ذوى سمات مختلفة.

وقد قدمت اللجنة التى يتبعها المكتب عدداً من الجوائز إلى المهتمين بصناعة السينما لوعيهم بتجربة المعاقين، وتقديمهم سيراً ذاتية دقيقة، وأفكاراً مبتكرة، واستعانتهم بعاملين وممثلين غير تقليديين، وإسهامهم فى تقديم نماذج للاختلافات فى المجتمع الأمريكى، وعلى الرغم من أن مكتب الدعم الإعلامى استطاع أن يقدم إسهاماً كبيراً فى السينما الأمريكية بهذا الشأن، إلا أنه مازال يواجه العديد من الصعوبات للدرجة التى دفعت John Wells أحد أبرز قياداته إلى القول: "بأننا مازلنا نجد صعوبة كما لو كنا نقترح أشخاصاً بيض ليقوموا بأدوار أشخاص سود...!!".

وقد شهدت شاشة السينما الأمريكية تجربتين فريدتين توضحان بما لا يدع مجالاً للشك بأن ذوى الاحتياجات الخاصة قادرون على اقتحام مجال الاتصال الإبداعى إذا ما أتيحت لهم الفرصة للتعبير عن ذواتهم بشكل أكثر مصداقية من غيرهم، كانت التجربة الأولى فى فيلم "أفضل سنوات حياتنا" The Best Years of Our Lives للمخرج الأمريكى وليم وايلر William Wyler وتدور قصته حول الصعوبات التى يواجهها الجنود العائدون إلى الحياة المدنية، وقد استعان المخرج بهارولد راسل Harold Russell ليؤدى دور جندى أمريكى عائداً من الحرب العالمية الثانية فاقداً لذراعيه، وجدير بالذكر أن هارولد راسل لم يكن ممثلاً، ولكنه كان بالفعل جندياً أمريكياً فقد ذراعيه من إصابة فى الحرب العالمية الثانية، وقد أدى دوره ببراعة، أهلته للفوز بجائزة أوسكار أحسن ممثل مساعد عن دوره فى هذا الفيلم، وجائزة تجربة أخرى "لجلب الأمل والشجاعة" لرفاقه من خلال ظهوره، وكان الممثل الوحيد الذى تلقى جائزتين من الأكاديمية الأمريكية للعلوم والفنون السينمائية عن نفس الدور... وقد حقق الفيلم أعلى الإيرادات فى الولايات المتحدة وبريطانيا بعد فيلم "ذهب مع الريح" بعدد تجاوز عشرين مليون تذكرة.

أما التجربة السينمائية الثانية فكانت فى فيلم Children of a Lesser God، والذى أخرجته راندا هينز Randa Hines، وتدور قصة الفيلم حول علاقة بين إحدى العاملات فى مدرسة للصم وضعاف السمع فى نيو انجلاند والتى تعانى من الصمم وكانت قبل ذلك إحدى طالبات المدرسة ومدرس شاب متحمس يصل للمدرسة، وعندما يتعرف عليها يبدأ فى تشجيعها كى تحيا حياة طبيعية من خلالها تعليمها كيف تتحدث بدلاً من لغة الإشارة التى كانت تستخدمها من قبل، ويستعرض الفيلم محاولات مقاومة التحدث فى البداية، ثم كيف اقتربا عاطفياً وكيف استطاعا معاً التغلب على الصعوبات والاختلافات بينهما، وكيف استطاع أن يخرجها من عالم الصمت الذى كانت تفضل أن تعيش فيه مع الأفراد الذين تنتمى إليهم والذين كانوا يمثلون لها عالماً أفضل من مواجهة عالم آخر من الأشخاص الطبيعيين غير المهتمين بها، وقد استعانت المخرجة بالممثلة Marlee Matlin وهى فتاة صماء بالفعل، ووقفت للمرة الأولى أمام الكاميرا لأداء دور الفتاة الصماء بالفيلم، وقد حققت مارلى ماتلين رغم إعاقتها نجاحاً مبهراً جعلها تحصل على جائزة أوسكار أفضل ممثلة، وكانت أصغر ممثلة تفوز بالأوسكار رغم ظهورها

على الشاشة للمرة الأولى.
أما فى مجال الإبداع الإعلانى فقد شهد العقدان الأخيران تطوراً كبيراً فى تمثيل ذوى الاحتياجات الخاصة فى الإعلانات سواء الموجهة إلى جمهورهم أو إلى الجمهور العام، فقد أطلقت شركة بيبسى Pepsi إعلاناً شهيراً عن كرة القدم الأمريكية مستخدمة لاعبين ممن يعانون الصمم، وهم يتواصلون بلغة الإشارة أثناء المباراة، وقد حقق الإعلان نجاحاً مبهراً وساهم فى خلق ثقافة جديدة تسعى إلى تقديرهم باعتبارهم جزءاً لا يتجزأ من المجتمع.
أما شركة Nike فقد استخدمت فى إعلاناتها عدداً من لاعبى ألعاب القوى ذوى الإعاقة المشهورين، وفى إحدى هذه الإعلانات استخدمت اللاعب كريج بلانشت Craig Blanchette وهو أحد لاعبى ألعاب القوى الأولمبيين من ذوى الاحتياجات الخاصة، وعلى مدى 27 ثانية من الإعلان لم يكن هناك مشهداً واحداً يظهر إعاقته، ولم نعرف إعاقته إلا فى الثوانى الأخيرة من خلال الكرسى الذى يجلس عليه وهو يقول: "لن أتوقف أبداً"، وذكر المسئولون فى شركة Nike أن هذا الإعلان لا علاقة له بإعاقة كريج بلانشت، وأنهم لم يقدموه فى الإعلان إلا باعتباره رياضياً كبيراً وهى الرابطة الأساسية فى ملابس Nike .

أما إعلان بنك أوف أمريكا Bank of America فيبدأ بلقطة طويلة لسيدة تقوم بعملية الإحماء، وعيناها مغمضتان، وذلك قبل مباراة للفنون القتالية، بينما يستعد رجل ذو ملامح آسيوية لمواجهتها، ثم تتحرك الكاميرا ناحية المرأة وهى تستعد، ثم تهاجم خصمها وتلقى به أرضاً، ثم يعرض الإعلان لقطة أخرى لها وهى تغادر المكان إلى الشارع حيث يتضح لنا أنها غير مبصرة، غير أن صوت المعلق يقول: "هل الانجاز يُفرق أم يفتح أبوابه لكل إنسان؟ "، ثم تظهر اللقطة الأخيرة للمرأة وهى تسير نحو ماكينة الصرف الآلى ATM الناطقة لغير المبصرين والتى تتبع بنك أوف أمريكا، وقد أوضح الإعلان أن الشركة نجحت فى كسر الحدود الاجتماعية، وابتكرت خبرات بنكية جديد، وقدمت لهم وعداً بيعياً كى يكونوا من الذين يتعاملون مع خدمات البنك.

أما إعلان شركة ماركس أند سبنسر Marks & Spencer فقد صور رجلاً على كرسى متحرك وامرأة صماء فى إعلان مطبوع للإعلان عن الملابس، ولا توجد أى إشارة فى الإعلان إلى إصابة السيدة بالصمم، بينما يبدو الرجل شاباً وسيماً حسن المظهر، وذو ابتسامة مشرقة وهما يرتديان ملابس عليها علامة M&S ومما يذكر أن هذان الشخصان كان لهما أعمالاً أخرى معروفة وسبق عرضها قبل أن يظهرا كموديل فى الإعلان.

إن إتاحة مجالات الاتصال الابداعى لذوى الاحتياجات الخاصة للتعبير عن رؤاهم بأنفسهم ضرورة ملحة وحق لا ينازعهم فيه أحد، إذا كنا ندرك الحدود الحقيقية للإعاقات، وأنها يمكن أن تكون ملهماً وحافزاً للتميز والتعبير، وليست فقط كما يعتقد البعض عائقاً مستبعداً، إنهم جديرون بالتحرك بحرية فى عالمهم الذى يدركون أبعاده أكثر من أى دائرة من دوائر المجتمع، فهم وحدهم القادرون على تقديم أنفسهم بصدق وبغير ادعاء، وعرض رؤيتهم لواقع يدركون ما يحتاج إليه منهم، وما يمكن أن يضيفوه إليه.

٥- الاتصال الإبداعى ودوره فى تسويق الصورة النمطية الإيجابية لذوى الاحتياجات الخاصة:

إنهم ليسوا فى محنة ... كما يصورهم أغلب من يتناولون قضاياهم، قد يكونوا فى صراع مع صعوبات خاصة، ولكنهم ليسوا أبداً عبئاً على أنفسهم أو على المجتمع، بل قد تنبع بعض جوانب معاناتهم من سياسات الدول، وتجاهلها لإيجاد حلول لمشكلاتهم كإحدى فئات المجتمع، وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة إلا أن وسائل الإعلام مازالت تعانى من سيطرة صورة نمطية سلبية عن ذوى الاحتياجات، حين تصورهم باعتبارهم أفراداً ليس لديهم نصيب من الإنجاز، وإنما لديهم دائماً مشكلات اجتماعية ومادية، وتكون نتيجة هذه الصورة النمطية السلبية إما الاستمرار فى تأكيدها بتقديم معالجات إعلامية تدعمها، مثل التركيز على نقص الإمكانات أو تردى الأوضاع، وقد يكون البديل الآخر هو تجاهل هذه الفئة ومطالبها، وهما بديلان يؤكدان سلبية الثقافة، وسلبية المحاولة، وسلبية الرؤية، قبل سلبية الصورة.

ففى دراسة لليزا ليفرز Lisa Levers على واحد وعشرين فيلماً من أفلام هوليوود التى تعرضت للإعاقات العقلية خلال نصف قرن من الأربعينيات حتى الثمانينيات من خلال تحليل تصوير الجنون فى الفن ودراسة العناصر المرتبطة بكل فيلم ووصف الحالة المرضية والصور النمطية بكل فيلم، أشارت النتائج إلى أن الأفلام موضع الدراسة تدعم الأفكار السائدة عن ذوى الإعاقات العقلية والنفسية مما يرسخ الصورة السلبية الموجودة لدى الجمهور بهذا الشأن بدلاً من أن يسهم فى تغييرها (10).

وعلى الرغم من الصور السلبية التى تبثها بعض وسائل الإعلام، إلا أن العقود الأخيرة قد شهدت محاولات عديدة – وإن كانت مازالت غير كافية – لتغيير هذه الصورة من خلال زيادة معدل ظهور شخصيات من ذوى الاحتياجات الخاصة فى البرامج الإعلامية والأعمال الدرامية، وهو ظهور غير مرتبط بطبيعة إعاقتهم وإنما من خلال أدوارهم الطبيعية فى المجتمع، وإبراز الجهود الخاصة بمحاولات دمج ذوى الاحتياجات الخاصة فى المؤسسات التعليمية، وإبراز نموذج تنوع المجتمع وأن ذوى الاحتياجات الخاصة ما هم إلا إحدى فئات هذا المجتمع.

وإذا كانت الصورة النمطية السلبية لذوى الاحتياجات مازالت تمثل عقبة أمام هذا القطاع الذى يمكن أن يسهم بفاعلية فى تطور المجتمعات، فإن عالم الاتصال الإبداعى يستطيع أن يسهم بأدوار فاعلة فى تغيير هذه الصورة إذا ما توافر الوعى الكافى لدى القائمين عليه بضرورة تصحيح الصورة والمعالجة، فعلى سبيل المثال ففى مجال الصور الصحفية والتى تعد إحدى أدوات الاتصال الإبداعى التى تعتمد عليها الصحف فى صياغة رسائلها لتأكيد المعانى والأفكار التى تعكسها الرموز اللفظية، لما تنفرد به فى نقل المعانى والأفكار المستقلة فى رسائل خاصة بها، حيث لا يقف دورها عند وظيفة جذب انتباه القارئ أو إثارة اهتمامه، ولكن يتم قراءة الرموز التى تتكون منها الصورة وما تحمله من رؤى، وما تجسده من أبعاد مضافة، ومن خلال تركيزها على شخصيات ووقائع معين (11)، قدمت الصحافة الأمريكية نموذجاً بارزاً ركز على الجوانب الإيجابية وتجاهل الجوانب السلبية فى استخدامها

الراقى للصور الصحفية الخاصة بالرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت، والذى كان قد أصيب فى بداية العشرينيات من عمره بشلل أطفال تطور بعد ذلك إلى شلل نصفى، وأصبح لا يستطيع الحركة إلا بواسطة كرسى متحرك، وبدا ذلك كما لو كان نهاية لحياته السياسية، وقد ناشدته والدته أن يعتزل السياسة إلا أنه رفض، وشرع فى رسم خطة تجعله يبدو مفعماً بالصحة والنشاط فى صوره الفوتوغرافية، فقد ابتكر روزفلت وسيلة بارعة تجعل الناس يقتنعون بأنه يستطيع الحركة، وذلك بتحريك جسده إلى الأمام والخلف مرتكزاً على عصا من جانب، وعلى ابنه اليوت من جانب آخر، لقد قام روزفلت بإدارة الولايات المتحدة أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية وأثناء الحرب العالمية الثانية، وجارى الصحفيون رغبته فى مدارة ذلك، ولم يكن يسمح على الإطلاق لأى مصور أن يلتقط صورته وهو يجلس على كرسى متحرك طوال فترات رئاسته الأربع، عدا صورتين التقطتا له وهو يجلس فى مكتبة الرئاسة بين خمس وثلاثين ألف صورة التقطت له، وفى ذلك يقول جريجورى جالافر Gregory Galaver مؤلف كتاب "خداع فرانكلين روزفلت الرائع": "أن روزفلت ما ظهر قط وهو يدفع كرسيه أو يدفع إليه، وما صور أحد قط عجز روزفلت فى صورة كاريكاتيرية بين رجال السياسة" (12)، ولم تناقش وسائل الإعلام مطلقاً موضوع إعاقته أثناء فترة الرئاسة، وركزت على قدراته غير المحدودة فى قيادة الولايات المتحدة بكفاءة، وبدت وسائل الإعلام الأمريكية وكأنها اجتمعت على قرار واحد.

أما فى مجال السينما فعلى الرغم من الدور السلبى الذى عكسته العديد من أفلام السينما، والصورة النمطية غير المناسبة التى أسهمت فى ترسيخها بشأن ذوى الاحتياجات، والسمات غير الإيجابية التى قامت بتشكيلها عبر عقود طويلة، إلا أن هناك محاولات ذات قيمة فى تقديم العديد من شخصيات ذوى الاحتياجات الخاصة التى قدمت إسهامات مؤثرة للبشرية، فقد قدمت السينما فيلم "العقل الجميل" A Beautiful Mind من إخراج رون هوارد Ron Howard وبطولة راسل كرو Russell Crowe عن جون فوربس ناش John Forbes Nash الذى حصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد وذلك تكريماً لجهوده فى نظرية الألعاب والتى لها استخدامات كبيرة فى الاقتصاد والتفاوض التجارى، كما أنه نشر ثلاثاً وعشرين بحثاً علمياً، وكان جون وناش قد عانى من مرض انفصام الشخصية، وكان متردداً دائماً على مستشفيات الأمراض العقلية، وبمرور الوقت وبمداومة العلاج وتشجيع زوجته عمل فى وضع مجتمعى تمكن من تقبل غرابة أطواره، ورغم هذه المعاناة استطاع أن يحقق انجازاً علمياً راقياً، وقد حصد الفيلم أربع جوائز أوسكار.

كما قدمت المخرجة جوليا تيمور Julie Taymor فيلم "فريدا" Frida، بطولة سلمى حايك عن قصة الرسامة المكسيكية فريدا كاهلو Frida Kahlo والتى أصيبت فى سن مبكرة بالشلل وتعلمت التصوير، وقد صور الفيلم الحياة التراجيدية للفنانة فريدا، والتى تركت وراءها تراثاً تشكيلياً يجسد مقدار القلق والمعاناة التى ضمت عمرها، فى نص مدروس ومعالجة فنية راقية، وقد رشح الفيلم لأكثر من ثمان وعشرين جائزة سينمائية، منها ست جوائز أوسكار نال منها جائزتين هما جائزة أفضل ماكياج وأفضل موسيقى تصويرية، كما نال جائزة جولدن

جلوب، واثنتا عشرة جائزة سينمائية أخرى، وجائزة أفضل ممثلة عالمية لسلمى حايك من جوائز الجولدن كاميرا الألمانية.

كما قدمت السينما عدداً من الأفلام التسجيلية والروائية عن الموسيقى الألمانى الكبير بيتهوفن Beethoven من أهمها فيلم "ناسخة بيتهوفن" Copying Beethoven بطولة ايد هاريس Ed Harris وإخراج المخرجة الهولندية انيشيكا هولاند والممثلة الألمانية دايان كروجر Diane Kruger، ويتحدث الفيلم عن أواخر حياة بيتهوفن، وتحديداً أثناء تأليفه السيمفونية التاسعة، وعلاقة بيتهوفن بناسخة النوت الموسيقية، وكيف واجه إصابته بالصمم حتى أنجز العمل الكبير والذى تحدث عنه فى أحد مشاهد الفيلم فقال: "ستتغير الموسيقى من الآن وإلى الأبد"... كما قدمت السينما فيلماً آخر يرصد حياة بيتهوفن هو فيلم Immortal Beloved من إخراج بيرنارد روس Bernard Rose وبطولة الممثل جارى أولدمان Gary Oldman، والذى يدور حول ثلاث رسائل قصيرة وجدت بين أوراق بيتهوفن الخاصة بعد وفاته وكانت موجهة إلى امرأة وصفها بالحبيب الخالد، ولم يذكر اسمها مطلقاً بين رسائله، ويحاول الفيلم البحث وراء الأسئلة المتعلقة بمن تكون هذه المرأة؟

أما الرسام الهولندى فينسنت فان جوخ Vincent Van Gogh والذى عانى من نوبات متكررة من المرض العقلى خاصة الهلاوس والصرع، وقد شغلت حياته المضطربة العلماء والمبدعين معاً، فقد وضعت مؤلفات عديدة ناقشت الجوانب المختلفة لحياته الخاصة وعلاقتها بأعماله الإبداعية ومراحله الفنية المختلفة، بل وناقشت بعضها علاقة اضطراباته بمراحله الفنية والألوان التي كان يستخدمها في كل مرحلة (13)، وعلى الجانب الآخر كانت إبداعاته وحياته مصدران لإلهام السينمائيين فأنتجوا حوله عدداً كبيراً من الأفلام من أهمها فيلم "Lost for " وهو اسم واحدة من لوحات فان جوخ، من اخراج فينست مينلى، يتحدث الفيلم عن سيرة حياة الفنان الصاخبة والدرامية، وحصل الفيلم على جائزة أوسكار أفضل ممثل مساعد حصل عليها انتونى كوين والذى مثل دور الرسام بول جوجان Paul Gogan صديق فان جوخ، كما رشح الفيلم لجائزة أفضل ممثل رئيسى عن دور كيرك دوجلاس Kirk Douglas الذى مثل دور فان جوخ... أما المخرج الياباني اوكيرا كيروساوا Okira Kurosawa فقد أخرج فيلم أحلام Dreams والذى لعب فيه مارتن سكورسيزى Martin Scorsese دور فان جوخ، ويتخيل فى مقاطع الفيلم قيامه برحلة داخل لوحات فان جوخ، وقد تحولت إلى مشاهد حية تضم كل الأماكن والشخصيات التى تحتويها، كما أخرج مايكل روبو Michael Rubbo فيلم فينسنت وأنا Vincent and Me حول الفتاة جوو التى تحب الرسم وتفوز بمنحة مدرسية خاصة فى إحدى مدارس الرسم الخاصة، وكان أكثر ما تتمناه أن تكون لديها القدرة على الرسم مثل قدوتها فان جوخ، وفى أحد الأيام يقوم تاجر غامض بشراء عدد من لوحاتها، ويطلب منها رسم بعض اللوحات الأخرى ويكافئها بشكل كبير، وتعود جوو إلى أمستردام بعد ذلك ، وبعد فترة تطلع على قصة فى مجلة حول "الاكتشاف الكبير" ومليون دولار لبيع بعض من رسوم فان جوخ الشاب، وكانت المفاجأة أن جميع الرسومات كانت لها ولصديقتها فيليكس، وتبدأ جوو ومجموعة من أصدقائها فى البحث عن الرجل اللغز، وخلال ذلك تتحدث إلى فان جوخ نفسه فى القرن التاسع عشر.... كما قدم المخرج روبرت التمان Robert Altman فيلم

فينسنت وثيو، وهو فيلم يعالج علاقة الرسام الخاصة مع شقيقه ثيو الذى تولى رعايته طوال حياته، والذى مثل الداعم الرئيسي لفان جوخ، وبلغت رسائلهما المتبادلة أكثر من سبعمائة رسالة، وهى تشكل أغلب معرفتنا بتصورات فان جوخ حول حياته الخاصة وأعماله الفنية.

وبعد مرور أكثر من مائة عام على رحيل فان جوخ، ورغم انتاج أفلام عديدة عنه، قررت المخرجة والرسامة البولندية دوروتا كوبيلا والمخرج الانجليزى هيو ويلشمان انتاج فيلم يجمع بين الفن التشكيلى وسحر السينما "Loving Vincent"، وهو أول فيلم فى العالم يتكون كاملاً من الرسوم "الزيتية" المتحركة، من خلال عرض 120 لوحة رسمها فان جوخ ليخبرنا من خلالها بقصته حيث تنقل فيها بين الحقول والوديان والأشخاص وروحه المتقدة وقلبه القلق، شارك فى الفيلم 120 رساماً من 20 دولة، تم اختيارهم من بين أكثر من 5000 متقدم، وقد نفذ الرسامون حوالى 65,000 لوحة تم تحريكها لإنتاج الفيلم مستخدمين تقنيات الرسم التى كان يستخدمها فان جوخ، واستغرق انتاج الفيلم الكبير أكثر خمس سنوات.

كما قدمت السينما فيلم قراصنة وادى السيليكون Pirates of Silicon Valley الذى يتناول سيرة مؤسسى شركة أبل وميكروسوفت وقد أدى الممثل انطونى مايكل هول Anthony Michael Hall دور بيل جيتس مؤسس الشركة الأخيرة وكان يعانى من أعراض مرض التوحد حيث كان فى طفولته مضطرباً وغريب الأطوار وكان يعانى خجلاً شديداً ومخاوف من أشياء صغيرة متعددة.

إن النظر الى الجوانب السلبية فقط لعالم ذوى الاحتياجات الخاصة يعكس قصوراً فى الإدراك الحقيقى لهذا العالم، والذى لا يختلف كثيراً عن عالم غير ذوى الاحتياجات الخاصة، فإذا كان فى الأخير نقص فى الأداء والانجاز لكثير من أفراده وعدم قدرة أو غياب رغبة أو انسحاب أو لامبالاة فى تقديم شىء ذى قيمة للذات وللمجتمع لأسباب متنوعة، فهذا ما يحدث فى عالم ذوى الاحتياجات الخاصة، ولكن يبقى لديهم جانب مضىء لم يكن فقط على المستوى الذاتى وإنما أسهموا به فى التقدم الانسانى والمعرفة العلمية، ويبقى دور الاتصال الإبداعى فى تقديم هذه الانجازات حتى يتم تعديل الصور القاصرة وإدراك الجوانب المضيئة، سعياً لرؤية جديدة حقيقية من جانب العديد من فئات المجتمع، ولوضع ذوى الاحتياجات الخاصة فى الموقع الطبيعى لحركة المجتمع والتقدم بواقعية وعدالة.

٦- الاتصال الإبداعى وأهمية البحث عن لغة ايجابية للتعبير عن ذوى الاحتياجات الخاصة:

فى رائعته "الأيام" والتى سجل فيها د. طه حسين قصته الذاتية يتحدث عن امتحانه فى حفظ القرآن تمهيداً لالتحاقه بالأزهر، فيكتب واصفاً نفسه: "ولكنه لم يكد يدنو من الممتحنين حتى ذهب عنه الوجل فجأة، وامتلأ قلبه حسرة وألماً، وثارت فى نفسه خواطر لاذعة لم ينسها قط، وإذا هو يسمع أحد الممتحنين يدعوه بهذه الجملة التى وقعت من أذنه ومن قلبه أسوأ وقع: "أقبل يا أعمى"، لولا أن أخاه أخذ بذراعه فأنهضه فى غير رفق وقاده إلى الممتحنين فى غير كلام، لما صدق أن هذه الدعوة قد سيقت إليه، فقد كان تعود من أهله كثيراً من الرفق

وتجنباً لذكر هذه الآفة بمحضره، وكان يقدر ذلك وإن لم ينس قط آفته ولم يشغل قط عن ذكرها"(14)... لقد جسد د. طه حسين فى كلماته إحدى أوجاع ذوى الاحتياجات الخاصة، والمفردات التى يجب تناولهم من خلالها بعيداً عن ذكر ما يؤلم، وما يذكر بضعف، وما يفرق من غير ترفق، إن الاهتمام بحساسية استخدام اللغة وما ترمز إليه فى هذا الموضع من الأهمية بمكان، ذلك أنها ليست مجرد الاستخدام اليومى العادى للغة، وإنما يتعاظم دورها بما يمكن أن تمثله تراكماتها السلبية من تأثير نفسى على ذوى الاحتياجات الخاصة، ومن تدعيم فى غير موضعه لمدلولات صور وألفاظ نحتاج إلى تجاوزها وتغييرها لدى باقى قطاعات الجماهير.

إن دراسة المعنى تشير إلى الارتباط بين الرموز الاتصالية من صور وكلمات وما تشير إليه من معان، ويأتى اختيار الفرد للرموز انطلاقاً من دلالاتها الضمنية وقدرتها على نقل المعنى الذى يؤثر فى الآخرين، وعلى الجانب الآخر لا يتم مجرد استقبال لهذه الرموز، ولكن تفسيرها للوصول إلى دلالاتها والاستجابة التى تتفق وهذه الدلالة، ذلك أنه طبقاً لنظريات المعرفة الإدراكية فإن الفرد يتأثر فى سلوكه بالنظام الإدراكى والمعرفى الذى كونه عن العالم المحيط به، حيث ينظم الأفراد إدراكهم ومعتقداتهم وأفكارهم فى أشكال ذات معنى ومغزى معين، يدركون ويفسرون فى إطاره العالم الخارجى، وبالتالى يأتى سلوكهم متأثراً بهذه المعانى التى يكونها الفرد عن الأشياء المحيطة به والرموز والمنبهات التى يتعرض لها، ولذلك فإن تفسير الفرد للرموز التى يتعرض لها، فيفسرها فى هذا الإطار الذى يطلق عليه الإطار الدلالى Frame of Reference .

وإذا كانت اللغة بمفهومها العام وسيلة للتواصل والتعبير عن المشاعر والرؤى والأفكار، فإن نطاقها لا يتحدد فقط بالكلمات أو بالحدود اللفظية لها، وإنما يتعدى ذلك إلى كل ما يمكن استخدامه للتعبير، فالرسوم لغة والتعبيرات الجسدية لغة، والإشارات البصرية بلغة، ولذلك فإن الاستخدام المتكرر لتعبيرات ومفردات وإيحاءات تعكس نظرة سلبية لإعاقات ذوى الاحتياجات الخاصة، وتصل فى بعض الأحيان إلى حد السخرية مما يلاقونه من صعوبات تمثل إدانة لثقافة وإنسانية المجتمعات التى تسمح بذلك فى وسائل إعلامها أو مسارحها أو إنتاجها السينمائي أو فى حياتها اليومية، دون أن تتوقف لحظة لتراجع نفسها وتقيم تأثير ما تستخدمه من ألفاظ وما تستدعيه الألفاظ من صور وأفكار لدى الفرد الذى يستمع إليها، وتدرك وقع ما تمارسه على ذوى الاحتياجات الخاصة وعلى ذويهم.

ولعل ذلك هو ما دفع بعض القطاعات والمؤسسات إلى تنقية اللغة المستخدمة تجاه ذوى الاحتياجات الخاصة ومحاولة إحلال لغة ايجابية بديلة للغة قاصرة وسلبية، ففى العقدين الأخيرين انتشر استبدال كلمة "المعاقين" Handicapped بمصطلح أكثر ايجابية هو "الأشخاص ذوو الإعاقة" People with Disability ، أو "ذوو الاحتياجات الخاصة" Special Needs ، أو "ذوو الهمم" People of Determination، وتمثل هذه المحاولات بداية واعية لمنح ذوى الاحتياجات الخاصة قدراً أكبر من الاهتمام الإنسانى والإدراك الإيجابى لما يمكن أن يمس معنوياتهم، وما يمكن أن يكون أكثر قسوة من الصعوبات التى تواجههم، وهنا لا مجال للغة الانتقاص أو التشويه أو السخرية من

صعوبات لم يكن لهم يد فيها، وقد عبر بطل فيلم عطر امرأةScent of a Woman عن هذا المغزى فى أحداث الفيلم حين قال: "لقد تجولت كثيراً، لقد كنت استطيع أن أرى يوماً ما، ولقد رأيت أولاداً أذرعتهم ممزقة وأرجلهم مبتورة، لكن كل ذلك لا يعنى شيئاً بجوار أرواح مبتورة، لأنه لا يوجد جراحة لهذا النوع أبداً".

٧- الحاجة إلى رؤية مستقبلية لدراسات عن الاتصال الإبداعى فى مجال ذوى الاحتياجات الخاصة:

شهدت البحوث العلمية فى مجال ذوى الاحتياجات الخاصة عامة والاتصال الإبداعى خاصة تصاعداً ملموساً فى العقود الأخيرة على المستويين العالمى والمحلى نتيجة الاهتمامات الحكومية والالتفات إلى ما تمثله النسبة الكبيرة من ذوى الاحتياجات الخاصة فى مجتمعاتها، ولعل المتتبع لهذه الحركة العلمية يلحظ تنوعاً متزايداً فى مجالات هذه البحوث خاصة فى العقدين الأخيرين، فقد أصبح مجال ذوى الاحتياجات الخاصة مجالاً بحثياً واسعاً ومستوعباً للعديد من التخصصات الإعلامية والتكنولوجية والطبية والنفسية وغيرها مما ساعد على زيادة الثراء العلمى ومعدلات الاستفادة المتبادلة بين هذه التخصصات.

ومن مراجعة العديد من نتائج البحوث العلمية حول الاتصال الإبداعى وذوى الاحتياجات الخاصة يلاحظ أن التصاعد المستمر فى هذه البحوث يجرى فى غياب وجود رؤية شاملة وهدف محدد متكامل نحو هذه البحوث، وأن ما يجرى لا يعدو أن يكون اجتهادات بحثية منفصلة لا رابط بينها ولا طريق تؤدى إليه، وهو ما يفضى بها فى كثير من الأحيان إلى كونها أوراقاً فى مكتبات دون أن يتعدى دورها إلى حيث ينبغى أن تكون من استفادة علمية وعملية وتطوير للواقع المعاش.

لذلك فنحن نحتاج وسط هذا الفيض الكبير من الدراسات إلى لحظة تأمل لما تم، وكيف نستفيد منه؟ وما نحتاج إليه من دراسات أخرى؟ حيث لا تقف حدود الحاجة إلى دراسة الأدبيات السابقة عند الرغبة فى تطوير المشكلة العلمية أو الفروض الخاصة بها، لكنها تمتد إلى تلبية الحاجات العلمية لمعرفة العلاقات بين نتائج البحوث السابقة لأغراض المقارنة المنهجية التى يمكن أن تثرى المعرفة أو توجه الباحثين إلى دراسة مشكلات علمية جديدة، أو إلقاء الضوء على المنهج والأدوات وإجراءات البحث المستخدمة فى البحوث السابقة ودراسة الارتباط بين هذه الاستخدامات والنتائج فى إطار المقارنة، ويتم إجراء مثل هذه الدراسات من خلال التحليل البعدى Meta Analysis أو التحليل من المستوى الثانى Secondary Analysis الذى يعتبر إعادة لاستخدام البحوث السابقة وتهدف عادة إلى المقارنة بين نتائج هذه البحوث لتحقيق التكامل بين هذه النتائج وصياغة تعميمات جديدة تعتمد على هذه المقارنة ونتائجها (15)، ذلك أن البحوث المتزايدة تظل مهملة دون توظيف عملى إذا فقدت وجود سبيل لبيان الترابط الداخلى بينها ومعرفة أوجه التكامل وأوجه النقص وكيفية إزالة غموض بعض النتائج، أو تفسير المتعارض منها.

إن العقود الأخيرة والتى عكست اهتماماً عالمياً ووعياً متزايداً بذوى الاحتياجات الخاصة، وبما يمثلونه من قطاع له سماته وخصائصه واحتياجاته، وضرورة انتاج محتوى إبداعى يلبى هذه الاحتياجات، وانعكاس هذا كله على التصاعد الكبير فى البحوث العلمية فى مجالات الاتصال الإبداعى التى استهدفت دراسة مختلف جوانب السمات والخصائص والاحتياجات وتقويم ما يقدم ومتطلبات التطوير، وهو ما يتطلب ضرورة الاهتمام بوقفة علمية متأنية لدراسة ما تم ومن بحوث وتحديد أوجه الاستفادة الواجبة ومجالات التكامل، واستيفاء أوجه النقص من خلال الدراسات المستقبلية سعياً لزيادة فاعلية الأداء العلمى وربطه بمتغيرات الواقع.

المراجع

١- منظمة الصحة العالمية – الأمم المتحدة، التقرير الدولى حول الإعاقة، نيويورك: ٢٠٢٣.

٢- للمزيد، انظر المرجعين التاليين:

- Bonds, Mark Evan. Beethoven: Variations on a life, Oxford: Oxford University press, 2020.

-Caeyers, Jan. Beethoven- A Life, California: University of California Press, 2020.

٣- للمزيد، انظر المرجعين التاليين:

- Stahr, Celia. Frida in America: The Creative Awakening of a Great Artist, New York: St. Martin's Publishing group, 2020.

- Burnell, Cerrie. I Am Not a Label: 34 disabled Artists, Thinkers, Athletes and Activists from past and present, New York: Quarto Publishing group, 2020.

4- Brodskaia, Nathalia. Impressionism and Post-Impressionism, England: Parkstone International, 2018.

٥- للمزيد، انظر المراجع التالية:

- Logue, Mark. Conradi,Peter. The King's Speech, London: Quercus Publishing PLC,2010.

- Smith, Sally Bedell, George VI and Elizabeth – The Marriage That Saved and Monarchy, New York: Random House Publishing Group, 2023.

٦- للمزيد، انظر المراجع التالية:

- Haynes, Danielle. Eye on Art -Claude Monet – Founder of French Impressionism, New York: Lucent Press, 2019.

- Kalitina, Nina. & Brodskaia, Natalia. The Ultimate Book of Claude Monet, New York: Parkstone International,2019.

- Lacayo, Richard. Last Light- How Six great Artists made old age of Triumph, New York: Simon&

Schuster, 2022.
- Dombrowski, Andre. A Companion to Impressionism, New Jersey: John Wiley& Sons LTD, 2021.

٧- منظمة الصحة العالمية- الأمم المتحدة، التقرير العالمى حول الإعاقة، نيويورك: ٢٠١١، ص ٨.
8- Kolucki, Barbara. "A Review of Research about Media and Disability: Does it make a difference?", Disability world, Issue no. 9, July – August 2001.
9- Harpe,Wendy. & Malcolm, Carol. "Not Seen, Not Heard: Learning Disabled Audiences and The Media", BBC Diversity Center : April 2005.p.33.

10- Levers, Lisa. "Representations of Psychiatric Disability in Fifty years of Hollywood Film: An Ethnographic Content Analysis", Theory & Science, 2001.
١١- محمد عبد الحميد والسيد بهنسى، تأثيرات الصورة الصحفية – النظرية والتطبيق، الطبعة الثانية (القاهرة: عالم الكتب، ٢٠١٤)، ص٢٦.
١٢- هارى ميلز، فن الإقناع، الطبعة الأولى (الرياض: مكتبة جرير، ٢٠٠٢)، ص٤٤.
١٣- للمزيد، انظر المراجع التالية:
-Bailey, Martin. Living with Vincent Van Gogh- The homes and landscapes that shaped the Artist, New York: Quarto Publishing group, 2020.
-Charles,Victoria. Vincent Van Gogh, New York: Parkstone Press, 2019.
-Naifeh, Steven. Van Gogh and the Artists He Loved, New York: Random House Publishing Group, 2021.
-Peppiatt,Michael. The Making of Modern Art- Selected writings, London: Yale university Press, 2020.
١٤- طه حسين، الأيام، القاهرة: مؤسسة هنداوى، ٢٠١٣، ص١٦٥.
١٥- محمد عبد الحميد، البحث العلمى فى الدراسات الإعلامية، الطبعة الثانية (القاهرة: عالم الكتب، ٢٠١٥) ص٢٧١.